موضوع السيميولوجيا و مجالات تطبيقها

يتضح من خلال قراءة التعاريف المعطاة لمفهوم السيميائيات أنها جميعها تتضمن مصطلح "العلامة" (Le signe). وهذا مؤشر واضح على أن العلامات وأنساقها هي الموضوع الرئيس للسيميائيات.

وهذا ما أكده جون دوبوا حين قال : " ولدت السيميولوجيا انطلاقا من مشروع دي سوسير. وموضوعها هو دراسة حياة العلامات في كنف المجتمع".

وقد بينت جوليا كريستيفا (Julia Kristeva) موضوع السيميائيات حين قالت "إن دراسة الأنظمة الشفوية وغير الشفوية –ومن ضمنها اللغات بما هي أنظمة أو علامات تتمفصل داخل تركيب الاختلافات- هي ما يشكل موضوع علم أخذ يتكون، ويتعلق الأمر بالسيميوطيقا". ومن هنا ندرك موضوع السيميائيات، إذ "تهتم بالعلامة من حيث طبيعتها ، وتسعى إلى الكشف عن القوانين المادية والنفسية التي تحكمها، وتتيح إمكانية تمفصلها داخل التركيب" و بالتالي يتضح ان العلامات و انساقها هي الموضوع الرئيسي للسيميولوجيا .

من الصعوبة إعطاء تعريف واحد نهائي للعلامة. و ذلك لكونها "مفهوما قاعديا أو أساسا في جميع علوم اللغة"، وإلى كونها "كيانا (entité) واسعا جدا "

إن هذه الاعتبارات التي تجعل صياغة تعريف واحد للعلامة أمرا عسيرا، لم تمنع الباحثين والنقاد من الاجتهاد في تعريف العلامة، فالعلامة (أو الدليل) عند دوسوسير كيان سيكولوجي مجرد قوامه عنصران متلازمان (دال ومدلول).حيث يؤكد هذا الأخير أن "العلامة اللسانية وحدة نفسية ذات وجهين، وهذان العنصران مرتبطان ارتباطا وثيقا، ويتطلب أحدهما الآخر، ونطلق على التأليف بين التصور (Concept) والصورة السمعية (Image acoustique) العلامة. ونقترح الاحتفاظ بكلمة "علامة" (Signe) لتعيين المجموع، وتعويض التصور "بالمدلول" (Signifié) والصورة السمعية "بالدال" (Signifiant)".

ويقصد دوسوسير بالدال (أو الصورة السمعية) الانطباع النفسي للصوت، في حين يقصد بالمدلول (أو التصور) التمثيل الذهني للشيء .

ويرى سوسير أن العلاقة بين وجهي العلامة لا تقوم على المشابهة والمناسبة، بل تقوم على الاعتباط(علاقة اعتباطية).

ويعرف أمبيرتو إيكو (Umberto Eco) العلامة بأنها "حركة (geste) تستهدف تحقيق التواصل، ونقل معنى خاص أو حالة شعورية لباث إلى مستقبل ويميز إيكو في كتابه "نظرية السيميوطيقا" بين الدلائل الطبيعية والدلائل غير القصدية... الخ.

وتناول بيرس العلامة في سياق منطقي دقيق يعتمد كثرة التفريعات والتقسيمات. مما يجعل فهم مفهومه للعلامة أمرا صعبا. وإذا كانت العلامة عند سوسير ثنائية الطابع، فإنها من وجهة نظر بيرس "علاقة ثلاثية بين ثلاث علامات فرعية تنتمي على التوالي إلى الأبعاد الثلاثة للممثِل والموضوع والمؤوِل .

ويرى كل من تودوروف Todorov ودوكرو Ducrot في هذا السياق أن "الرقم "ثلاثة" يلعب دورا أساسيا في سيميوطيقا بيرس، مثل الرقم "اثنان" في سيميولوجيا سوسير تماما في حين مفهوم العلامة في سيميوطيقا بيرس متسع، بحيث يشمل –إلى جانب العلامات اللسانية- العلامات غير اللسانية.

تهتم السيميائيات بدراسة الأنساق الدلالية، أي مجموع العلامات التي تنسج فيما بينها شبكة من العلاقات الإختلافية والتعارضية حتى تضطلع بتأدية وظائف دلالية متميزة بين مرسل ومتلق. ويقسم روسي لاندي هذه الأنساق إلى قسمين كبيرين، هما :

أ) **أنساق دلالية طبيعية**: وهي تلك الأنساق التي توجد في الطبيعة وتتسم بكونها غير مؤسسية، إلا أن الإنسان وظفها داخل مملكة العلامات، أي أنه أسند إليها دلالات مخصوصة.

ب) **أنساق دلالية اجتماعية**: وهي تلك التي تمتاز بكونها مؤسسية، أي قائمة على نوع من المواضعة الاجتماعية، لأنها من نتاج عمل الإنسان، وقد قسمها روسي-لاندي إلى صنفين، هما :

* أنساق دلالية اجتماعية لفظية: ويعرفها بأنها "تلك الأنساق التي لها لغات ولها خصوصياتها المتنوعة وإعدادات مثل الأنواع السننية، وتقوم هذه الأنواع السننية على التمييزات التي يحدثها الإنسان في مادة الصوت".

* أنساق دلالية اجتماعية غير لفظية: ويعرفها بقوله: "تلك الأنساق التي لا تستعمل أنواعا سننية قائمة على أصوات متلفظ بها، ولكنها تستعمل أنواعا سننية قائمة على أنماط أخرى من الأشياء".

وقد قسم **إيكو** الأنساق الدلالية إلى ثمانية عشر نوعا بالاستناد إلى معيار ثقافي محض. فالأنساق –في نظره- كلها ثقافية، ترتب انطلاقا من أقلها ثقافيا إلى الأشد تعقيدا . وأول هذه الأنساق التواصلية ما أسماه إيكو "سيميوطيقا الحيوان" (Zoosémiotique)، وهي تعنى بالسلوكيات المتصلة بالتواصل داخل الجماعات غير الإنسانية، في حين تعد الخطابة (La rhétorique) آخر هذه الأنساق وأكثرها تعقيدا من الناحية الثقافية.

وإذا كان إيكو قد فصل القول في الأنساق الدلالية وأفاض في تفريعاتها ، فإن مدرسة تارتو (Tartu) الروسية قد اقتصرت على تقسيم هذه الأنساق إلى قسمين كبيرين و هما :

* **أنساق نمذجة أولية** (Systèmes modelant primaires): وهي الأنساق اللفظية.

* **أنساق نمذجة ثانوية** (Systèmes modelant secondaires): وهي مبنية على الأنساق الأولى، وتدرج ضمن هذه الأنساق الأساطير والدين والشعر والفنون بصفة عامة .

ولعل أشهر التقسيمات وأجودها ذلك التقسيم الذي قدمه ميتز، حين قسم السيميوطيقا إلى لفظية وغير لفظية، ونجد الشيء نفسه عند برنارد توسان (Bernard Toussaint) الذي قسم السيميولوجيا إلى لسانية وغير لسانية، وبصورة أجلى، فإن العلامات نوعان، هما:

أ- **العلامات اللسانية (أو اللفظية):** ويقصد بها الكلام المنطوق وعلامات الكتابة أو الحروف (Graphèmes) بأي لغة كانت.

ب- **العلامات غير اللسانية (أو غير اللفظية):** وهي التي تقوم على أنواع سننية أخرى غير الأصوات والحروف، ويمكن أن نقسمها إلى علامات عضوية مرتبطة بجسم الإنسان (مثل: حركات الجسم وأوضاع الجسد والعلامات الشمية والسمعية والذوقية...)، وعلامات أداتية (Instrumentales) تحيل على أشياء خارجة عن العضوية الإنسانية (مثل: الملابس والموسيقى وإشارات المرور.

وعادة ما تعطى الأولوية للعلامات اللسانية التي تقوم على اللغة (Langage) أو الكلام (Parole). يقول سوسير **اللسان** (أي اللغة) عبارة عن نسق من العلامات التي تعبر عن الأفكار، ومن هنا، يمكن مقارنته بالكتابة وبالأحرف الأبجدية عند المصابين بالصم والبكم، وكذلك مقارنته بالطقوس الرمزية، وبأشكال الآداب وسلوكها، وبالإشارات المتعارف عليها عند الجنود، وغير ذلك.

و عموما يمكن القول أن سوسير منذ البداية كان يدرك أن العملية التواصلية تتم عبر مجموعة من الإشارات اللغوية و غير اللغوية ، فكانت أول خطوة قام بها هي تحديد علم اللغة بعد النظر إلى جميع العوامل البيولوجية ، الفيزيقية ، الاجتماعية و التاريخية التي تتداخل فيما بينها لتشك النشاط اللغوي لدى البشر . و عليه تجدر الإشارة إلى أن السيميولوجيا مرتبطة ارتباطا وثيقا بالنموذج اللساني البنيوي الذي أرساه سوسير.

أما عن **مجالات تطبيق السيميولوجيا** حيث يمكن القول أن المنهج السيميائي يطبق في مجالات متعددة حيث يستعمل كما سبق و أن ذكرنا سابقا في مجال العلامات اللغوية كالنص الشعري و العلامات الغير لغوية كاللوحات التشكيلية و غيرها

لقد صار التحليل السيميوطيقي تصورا نظريا و منهجا تطبيقيا في شتى المعارف والدراسات الإنسانية و الفكرية والعلمية، وأداة في مقاربة الأنساق اللغوية والغير لغوية، وأصبح هذا التحليل مفتاحا حداثيا لابد اللجوء إليه قصد عصرنة الفهم و آليات التأويل و القراءة و يمكن أن نذكر مجموعة من الحقول المعرفية التي استخدمت فيه التقنية السيميوطيقية للتفكيك و التركيب :

- ✓ الشعر: جولي كريستيفا ، رومان جاكبسون
- ✓ الرواية و القصة : غريماص ، بارت و اخرون
- ✓ الأسطورة و الخرافة : فلاديمير بروب
- ✓ المسرح و السينما : كريستيان ميتز و لوتمان
- ✓ الإشهار: رولان بارث و آخرون
- ✓ التشكيل و فن الرسم إلى جانب الأزياء و الأطعمة و الموضة
- ✓ الموسيقى، الفن، الصورة الفوتوغرافية و الثقافة عموما